العبودية
وظيفة العمر

كتبه
ياسر برهامي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين







دار الخلفاء الراشدين
الأسكندرية

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/١٥٢٣٠م

دار الخلفاء الراشدين
الأسكندرية - أبو سليمان - ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٥٠١٣١٥١ - ٠١٢٠١٥٢٩٠٨

دار الفتح الإسلامي
الأسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٢٧٧١٠٦٠ - ٠١٠٦٧١٤٧٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، أرسله ربه مبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وجعله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أسوة حسنة لعباده المؤمنين السائرين إلى الله - تَعَالَىٰ - على طريق العبودية، وأنزل الله تَعَالَىٰ عليه فيما أنزل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وأنزل - عزَّ وجلَّ - عليه فيما أنزل: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

فبين له حقيقة هذا الدين ودعوته العالمين أن يعبدوا الله لا شريك له.

وجعل أمته كذلك قبل أن يوجدوا وقبل أن يولدوا، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح:٢٩].

وجعلهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - كما وصفوا في الكتب المتقدمة رهبانًا بالليل ليوثًا بالنهار، أناجيلهم في صدورهم - أي يحفظون الكتاب الذي أنزله الله على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدورهم - يقومون به بالليل، ويجاهدون من أجل رفعته بالنهار.

وجعل - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - شرط التمكين تحقيق هذه الوظيفة (العبودية لله) قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[النور:٥٥].

كما أنه جعل هذه الوظيفة العظيمة غاية التمكين[١]، فكما أنها سببه فهي كذلك غايته، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:٤١].

---

(١) التمكين: أن يمكنهم من إقامة دينه في أنفسهم وفي الأرض وتحقيق الإسلام والإيمان والإحسان.

فهي غاية وجود الإنسان، وهي غاية بعثة الرسل قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦].

❁❁❁

العبادة هي غاية الوجود

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

[الذاريات:٥٦]

فوظيفة كل مكلف من الجن والإنس على مر أنفاسه؛ أن يعبد الله ولا يشرك به شيئًا، وهـذه أول الـواجبات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء:٣٦].

فذكر الله - عزَّ وجلَّ - عشرة حقوق أوجبها - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - على العباد، **أولها**: الوصية بعبادة الله وحده، لا شريك له.

وهي قضاء الله الشرعي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء:٢٣].

وهي أول الحكمة وآخرها كذلك، قال تعالىٰ في بيان فضل هذه الآيات من سورة الإسراء: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء:٣٩].

والإله هو المعبود

ويكفي في بيان أهمية هذه الوظيفة العظيمة -العبادةَ لله عزَّ وجلَّ - أنها معنى أعظم كلمة وأفضل كلمة قالها النبيون، وأفضل كلمة قالها إنسان، هي **لا إله إلا الله**، **ومعناها**: لا معبود بحق إلا الله، فلا يعبد بحق في السماوات والأرض سواه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وكل معبود يعبد من دونه فعبادته باطلة وشقاء وعناء.

لذة العبادة

وإذا تأملنا أن الله - عزَّ وجلَّ - جعل للإنسان في الأمور التي يحتاج إليها لبقائه واستمرار حياته رغبة ولذة فيها، لأنه لا قوام لحياته إلا بها؛ فإنه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - جعل للإنسان رغبة في الطعام والشراب، فيجوع إن لم يأكل، ويعطش إذا لم يشرب.

فجعل في جسمه هذه الحاجة، وذلك لأنه بدون الطعام والشراب لا يعيش، ولا يمكن أن يقوم له كيان، بل يهلك إذا ترك الأمر إلى رغبته، فإذا لم يرغب في الأكل لم يأكل، فجعل الله في فطرة الإنسان حاجة أساسية إلى الأكل، كما أنه لو ترك أمر حفظ النسل إلى رغبات الناس لم يكن ذلك دافعًا لهم ولهلك النوع البشري، فقدر الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وجعل في الإنسان الرغبة في الجنس الآخر، ليكون ذلك دافعًا إلى الزواج والتناسل الذي يجد الإنسان فيه لذته، وإن لم يفكر لماذا يريد

هذا الشيء لكنه يفعله من أجل اللذة، فهو لم يفكر في المصلحة، لكنه بعد ذلك يظهر له أن مصلحة حفظ النوع الإنساني حاصلة بوجود التناسل وبوجود الرغبة التي جعلت فيه.

وكذلك فلأن الإنسان حياته ناقصة، يجد رغبة في النوم والراحة كلما تعب، وهكذا نجد كل ما بالإنسان إليه حاجة جعل الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فيه رغبة إليه، وجعل له إذا فعله لذة.

وهكذا الأمر الذي نقول إنه: **وظيفة العمر**، فهو الهدف من وجودنا في الحياة، إنه الإجابة على ذلك السؤال: لماذا خلقنا؟

لا نقول: من غير لماذا؟ أو لا ندري لماذا، كما يقول الزنادقة، وإنما نعلم أننا خلقنا لنعبد الله، فهذا الأمر أيضًا له لذة هي أعظم لذة على الإطلاق، إذ الحاجة إلى هذه الوظيفة هي أعظم الحاجات على الإطلاق، فهل وجدت بالفعل هذه اللذة؟! بل هل وجدت هذه الرغبة؟!.

إن الإنسان به حاجة فطرية تدفعه دفعًا إلى أن يتعبد، وإلى أن يكون عبدًا، وإلى أن يخضع، ويذل، ويستكين، ويطمئن إلى إلهه ومعبوده.

لذا فإن الإنسان لتحقيق هذه الرغبة الموجودة فيه يبحث عن إله يعبده، فإن وفق وهدي وقبل دعوة الرسل الذين جاؤوا لتحقيق العبودية لله - وحده لا شريك له - وجد السعادة واللذة في تحقيقه لهذه العبودية، وهذه اللذة قد يفعلها أولًا، ولا يجد ذلك الطعم اللذيذ الذي يجده الإنسان، لذة لا تضاهيها لذة في هذا الوجود كله.

إنها لذة ربما تأتي للإنسان في العمر لحظة، وربما دقيقة أو دقائق، وربما عاش كل ساعاته وأيامه ولياليه في هذه اللذة التي هي أعظم من كل لذة بلا شك.

وقد لا يجد الإنسان هذه اللذة بهذه الدرجة في أول الأمر، وإنما نصيب الإنسان منها على قدر تحقيق العبودية في

قلبه، فلماذا لا نجدها ونحن نصلي أو نصوم، وإنما نجد التعب فقط، نجد مشقة القيام، ومشقة الجوع والعطش؟

ذلك لأن العبادة لم تتم كما ينبغي، ولم تتم على الوجه الذي أمر الله - عزَّ وجلَّ - به، فوجد الإنسان النصب كما قصر، إما في الخشوع، وإما في استحضار معاني العبادة في القلب وهو يؤديها، وإما في الإخلاص، وإما في الصدق، وإما في المتابعة، فإذا وقعت المخالفة - ولو بدون قصد - فسوف يجد التعب.

ألم تقرأ قول الله - عزَّ وجلَّ - عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف:٦٢].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث المتفق على صحته: **«وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ»**.

فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمره الله أن يصل إلى عبدٍ صالح بِمَجْمَع البحرين، سافر موسى طويلًا، ولم يجد تعبًا لأنه لم يتجاوز المكان الذي أمر به، فلما تجاوزه - عندما نسي الفتى أن يخبره بأمر الحوت -، كان التجاوز بغير قصد من موسى، وكان نسيانًا من الفتى، فمع أنه لم يكن عن قصد المخالفة وجد التعب، فعندما يؤدي الإنسان الوظيفة وفْقَ ما أُمِرَ به تمامًا ظاهرًا وباطنًا فإنه لا يتعب، بل لا يجد إلا السعادة والسكون والطمأنينة، فإذا جاوز فإنه يجد التعب، وكذلك إذا قصر فيها، فمثلًا: إذا أدى الصلاة بلا روح، فأداها وهو مشغول بدنياه التي بها أودية متشعبة لا يحصيها الواحد منا كثرة، ومشاغل لا تنتهي، فعند ذلك لا يجد لذة هذه العبادة، وكذلك الصيام، وكذلك الجهاد.

فالعبادة فطرة إنسانية، فهناك شوق دفين بالإنسان إلى أن يتعبد، أن يتوجه إلى الله، ألم تعلم قول الله -تَعَالَىٰ -: ﴿ فَأَقِمْ

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

والحنيف: هو المائل إلى الله، المعرض عن غيره، فقد خلق الله الخلق يميلون بفطرتهم إلى الله وإلى عبوديته، فهناك فقر ذاتي بالإنسان، جوع شديد، وعطش شديد، وأرض قلبه تكاد تتشقق، بل قد تشققت إن لم يعطها سقياها من التوجه إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، وإذا فعل ما أمر به وجد تلك اللذة وتلك الحلاوة التي قال عنها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بهن حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وقال عنها ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيـمَانِ مَـنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا**»[(١)].

فهلا سأل كل واحد منا نفسه هل وجدت طعم الإيمان؟ هل وجدت حلاوته؟ هل وجدت هذه اللذة التي نقول عنها: إنها أعظم من كل اللذات؟ أم أنك مازلت تبحث عنها؟

إذا لم تجدها فأنت بعد لم تحقق الغاية المطلوبة منك، ولم تؤدِّ العبادة على وجهها، ولذا تجد فقط مرارة التعب والنصب، الذي سببه مجاوزة الحد إما تقصيرًا وإما تجاوزًا أو ابتعادًا عما شرع لك، ولو لم تكن تقصد، فضلًا عن أن يكون هناك قصد، فالمعاصي وترك العبادة ومخالفة ما أمر الله - عزَّ وجلَّ - به لها أثر مؤلم في نفس الإنسان، ولها شقاء وتعب، لأنها تَزِيدُ عطش القلب، ولأنها تزيد جوع النفس، وتزيد آلامها ومتاعبها.

---

(١) رواه مسلم.

وأكثر الناس إذا بحثوا فإنهم يبحثون عن مسكرات ومخدرات لتلك الآلام الرهيبة التي يجدونها ولا يعرفون سببًا لها، فيبحثون عن مزيد من اللذات الظاهرة التي لا تروي غليلًا ولا تشفي عليلًا، التي يأخذ الإنسان منها فينسى ألمه مدة، ثم يعود الألم من جديد، ويعود الشقاء، ويعود الشعور بالكآبة والحزن، ويعود الشعور بالهم والغم والكرب، فيطلب المزيد، حاله في ذلك كحال من أدمن المخدرات.

وتأمل: لماذا يشرب أكثر الناس في العالم الخمر؟ لماذا يشربون المخدرات؟ لماذا تفتك هذه الأشياء بالعالم كله إلا من رحم الله؟.

لاشك أن هذا الواقع الذي يعيشه الناس يؤلمهم ويريدون الهروب منه إلى ما يتمنونه، وأيسر وسيلة لتخيل الأماني، وتخيل الحياة كما تحلو للإنسان هي أن يشرب المخدرات، وأن يشرب الخمر، ليعيش كما يشتهي لحظات من الزمن، يفيق بعدها على ندم، وعلى مضرة وألم أشد، فلا يجد مفرًا إلا مزيدًا من الخمر والسكر.

وكما أن السكر يكون بالمسكرات، يكون أيضًا بالمعاصي، فسكر لذة الجنس - مثلًا - سكر لحظات، يجري الإنسان وراءه، ويعقبه الندم العجيب الذي ربما لا يدري من أين يأتي.

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا مِنْ الحَرَامِ وَيَبْقَى الإِثْمُ وَالعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ من مَغَبَّتِهَا لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

وكذلك سكر الرياسة، والسلطان، والسطوة، والقوة التي دفعت ابن آدم الأول لقتل أخيه فوجد ندمًا عجيبًا:

﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٣٠].

﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٣١].

إن كل معصية هي ابتعاد عن عبودية الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - لذا يجد الإنسان لها ألمًا، وهناك من يبحث عن علاج بالفعل؛ فالبعض يبحث عن العلاج الحقيقي الذي يسد هذا الجوع، ويدفع هذا الألم، وهذا لا يكون إلا بتحقيق العبودية لله وحده - كما ذكرنا -، ولكن أكثر الخلق لا يبحثون عن ذلك العلاج

الحقيقي، وإنما يبحثون عن مسكرات، ألم تعلم قول الله - عَزَّ وجلَّ - عن قوم لوط: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر:٧٢]

إنه سكر عجيب، سكر المعصية، سكر الشهوة، وكذلك سكرت امرأة العزيز عندما لم تسمع وقع أقدام زوجها على الباب، ولم تعقل أنه لا ينبغي لها أن تجذب فتاها حتى تشق قميصه، وتمزق ثوبه، انظر إلى شدة الجذبة التي جذبته إياها:

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ [يوسف:٢٥].

سُبْحَان الله، ما الذي أعماها هذا العمى؟ إنها الشهوة المحرمة التي وجدت لها رغبة شديدة في نفسها، وهي في الحقيقة سكر يسكر الإنسان.

والسؤال هنا: لماذا يجد الإنسان ذلك؟

لوجود ألم في النفس يبحث الإنسان عما يزيله، فلا يعالجه إلا بمزيد من الداء - والعياذ بالله -، يسكر مدة قليلة، ويعود أشد تألمًا، ولا تنتهي هذه المشكلة إلا بهلاكه وقتله وموته، كالمخدرات تمامًا، هيروين، وكوكايين، وخمور، وحشيش وغير ذلك، كلها قاتلة للنفس بالفعل، وهكذا المعاصي والشهوات المحرمة - لا تنتهي بالإنسان حتى تهلكه وتدمر قلبه، لأنه لم يبحث عن العلاج الحقيقي لذلك العطش ولذلك الجوع، ولتلك الحاجة الضرورية التي يجدها في قلبه، حاجته إلى العبودية، أن يعبد الله - عَزَّ وجلَّ - ويتوجه إليه ويمتلئ قلبه بمحبته، ورجائه، والخوف منه وحده، والتوكل عليه وحده، وصدق الالتجاء إليه وحده، وتفويض الأمر إليه وحده، وحسن الظن به، والرضا به - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، والصبر على ما يصيب الإنسان في سبيل طاعته والبعد عن معصيته.

وكل عبادة من العبادات، في النفس حاجة إليها، ويجد الإنسان لها لذة إذا أداها كاملة، وهذه اللذة تضيع من

الكثيرين إذا ما أدوا العبادة كواجب ثقيل يريدون التخلص منه بأسرع ما يمكن، فيضيع منهم ألذ ما في الحياة.

قال بعض الصالحين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: ما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه والإعراض عما سواه، والتوجه إليه وحده لا شريك له.

قال بعض الصالحين: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وهكذا لم يكن بلال رضي الله عنه يجد ألم التعذيب لحلاوة: «أحد، أحد».

وهكذا كان خُبيب بن عدي رضي الله عنه - وكان مع عاصم بن ثابت رضي الله عنه يوم الرجيع - لقد عذبه المشركون عذابًا شديدًا ثم قالوا له: أتحب أن محمدًا مكانك، وأنك معافى في أهلك ومالك، فقال: «والله ما أحب أنني معافى في أهلي ومالي ويشاك محمد صلى الله عليه وسلم بشوكة».

أَسَرَتْ قريشٌ مُسْلمًا في غـزوةٍ ... فَمَضَى بِلَا وَجِلٍ إلى السيافِ
سَألوه: هل يُرْضيكَ أنكَ سالمٌ ... وَلك النَّبيُّ فِدىً مِنْ الإِتلافِ؟
فأجابَ: كلا، لا سلمتُ مِنْ الرَّدَى ... وَيُصَابُ أنفُ مُحَمَّدٍ برعافِ

وكان رضي الله عنه قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلما أسر في يوم الرجيع اشتراه بنو الحارث بن عامر، فمكث عندهم أسيرًا، حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها، فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه فأتاه، فوضعه على فخده، فلما رأيته فزعة عرف ذاك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله.

وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمر، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقًا رزقه الله. فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني لأصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا ثم قال:

ولستُ أبالي حين أُقْتَلُ مسلمًا عَلى أيِّ شِقٍّ كَانَ لله مَصْرَعِي
وَذَلِكَ في ذَاتِ الإِلهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِك عَلَى أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

هذا الذي دفع الصحابة ﭬ إلى أن ينطلقوا لا يشعرون بما حولهم من الآلام، بل بالقطع وجدوا لذة أذهبت مرارة هذه الآلام، وجدوا لذة تحقيق العبودية لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

❁ ❁ ❁

شروط العبودية وأركانها

هذه الوظيفة لها شروطها وأركانها التي لا تتحقق إلا بها، فحقيقتها كمال الحب مع كمال الذل.

فلا يؤدي الإنسان هذه الوظيفة محققًا العبودية لله - عزَّ وجلَّ - إلا بكمال حبه لله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

والحب هو الحب، لا يفسر بغيره، ولا يشعر به إلا من يجده، لا يمكن لإنسان أن يصف طعم محبته لله لآخر لم يجدها ولم يذق شيئًا منها مرة في حياته، بل لابد من ذوقها.

وكذلك لا تتحقق العبودية لله - عزَّ وجلَّ - إلا مع كمال الذل والخضوع له - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

وهذا يعني أنه لو كان حبًا من غير انقياد، فهذا الحب لا ينفع صاحبه.

تعصي الإله وأنت تـزعُمُ حُبَّـهُ ... هــذا مُحـالٌ في القيـاسِ شَـنيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّـكَ صَـادقًا لأطعتَـهُ ... إنَّ المُحِـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطيـعٌ

فلابد إذا كان المحب صادقًا أن يكون مطيعًا لمن أحب: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

وكذا قالوا: أجنحة العبادة ثلاثة: «الحب، والخوف، والرجاء».

فلابد أن تكون عبادتك لله في كل ما تؤديه حبًا له - عزَّ وجلَّ -، وفي الوقت نفسه لابد أن تكون خائفًا من عقابه، لا كما يقول الزنادقة: «نعبد الله حبًا؛ لا نريد جنة، ولا نخاف نارًا» نعوذ بالله من هذا الكفر والضلال الذي نسبوه إلى رابعة

العدوية، والله أعلم إن كانت قالت ذلك أم لا، لكنه من الضلال المبين، وأما من يقولون: «عبادة الرجاء عبادة التجار، وعبادة الخوف عبادة العبيد، وعبادة الحب عبادة الأحرار»، فقد نصبوا المعركة بين أجزاء الجسم الواحد، فجدير بهذا الجسم أن يتفتت ويتمزق ويقتله المرض إذا كانت أجزاؤه يحارب بعضها بعضًا.

لذا قال بعض السلف: «مَنْ عَبَدَ الله بالحب وَحْدَهُ فَهو زنديق، وَمَنْ عَبَدَ الله بالخوف وحده فهو حروري، ومَنْ عَبَدَ الله بالرجاء وَحْدَهُ فهو مُرجئ، ومَنْ عَبَدَ الله بالحب وَالخَوف والرَّجاء فهو المؤْمِن المُوحد».

وقولهم: «من عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق»، أي كاذب منافق، كاذب في دعواه أنه يعبد الله حبًا، لو كان محبًا لله لأطاعه فيما قال، وقد قال: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٨].

أيظن أن يكون خيرًا من نبي الله زكريا وأهله الذين أثنى الله عليهم، فقال تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠].

لذا فإن من قال: أعبد الله حبًا بلا رجاء ولا خوف فهو كاذب، زنديق، منافق يريد أن يُلَبِّس على الناس دينهم.

قالوا: «ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري» أي من الخوارج - نسبة إلى بلدة تسمى حروراء كان ظهور الخوارج المكفرين للأمة فيها -.

قالوا: «ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ»، نسبة إلى فرقة المرجئة المبتدعة التي تقول: «لا يضر مع الإيمان معصية»، كل هؤلاء على ضلال.

قالوا: «ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو المؤمن الموحد».

كما قال رسول الله ﷺ لِمَنْ قَالَ لَهُ: إِنِّي لاَ أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلاَ دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، وَلَكِنِي أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ. فَقَالَ ﷺ: «**حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**»[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة بسند صحيح.

الإخلاص

أساس العبادة الأول

ولا تصح العبادة إلا بالإخلاص، وهو توحيد المراد (أي لا تريد إلا وجه الله)، فهذا هو طريق الأنبياء.

فلا تريد مدح الناس ولا تخاف ذمهم، ولا تبتغي شيئًا من الدنيا جزاء على عبادتك، كمن يعمل في وظيفة من أجل مال، أو كمن يخطب أو يُحدث الناس أو يعظ من أجل مال أو وظيفة أو وجاهة ونحو هذا، لا يخطب، ولا يفتي الناس ولا يعلمهم إلا مقابل مال أو جاه، هذا من فساد الإخلاص والعياذ بالله من ذلك.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧].

وقال ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[١].

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

الاتباع

أساس العبادة الثاني

من عَبَدَ الله من غير اتباع رسول الله ﷺ، فهذا مبتدع ضال، كالصوفية الذين يخترعون العبادات، التي في كثير منها تعذيب للنفس، مع كونها لا تفيد شيئًا، فيعبد الله بغير اتباع للنبي ﷺ فتفسد العبادة، فلابد من الإخلاص وهو توحيد المراد، ولابد من الاتباع وهو توحيد المتبوع ﷺ. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]. وقال تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠].

وقال ﷺ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**»(١).

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وابن حبان، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٨/ ١٠٧).

الإيمان

ركن العبادة الركين

كما أنه لابد من الإيمان، فإن العبادة لا تقبل من غير أن يكون الإنسان مؤمنًا بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، كما قال ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ في سَبِيلِ الله، مَا قَبِلَ الله مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

فلابد أن يريد الآخرة، ولابد أن يسعى لها سعيها، وهو الاتباع، ولابد أن يكون مؤمنًا، ولو أدى العبادات بإخلاص واتباع ولكنه كفر - مثلًا - بنبي من الأنبياء أو كتابٍ من الكتب المنزلة من عند الله أو كفر بآية واحدة من القرآن

العظيم، أو كذب باليوم الآخر أو كذب بالقدر، أو كفر بالملائكة وعاداهم، أو جعل لله ولدًا أو صاحبة، أو نسب إلى الله - عزَّ وجلَّ - الشريك والنِّدَّ، أو جعل مع الله أربابًا يدعوهم من دونه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أو يحكمهم دون شرع الله - عزَّ وجلَّ -؛ فقد أحبط ذلك عمله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

❁ ❁ ❁

خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ

وهذه العبادة أيضًا تتطلب توحيد الإرادة فكما تُوَحِّدُ المراد بالإخلاص؛ تُوَحِّدُ الإرادة بالصدق، والصدق يكون بالقول، وبالعمل كذلك، ألم تعلم قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب:٢٣].

فسمي فعلهم «صدقًا»، وهذا توحيد الإرادة، بمعنى: أنك لا توزع إرادتك على رغبات شتى، فتضعف إرادتك فيما تريد به وجه الله - عزَّ وجلَّ -.

نشبه ذلك بمَثَل: قطار يسير من الإسكندرية إلى القاهرة مباشرة، وجهته القاهرة ولا يعرج على المحطات المتوسطة، ولا يقف بها، ولا ينال بعضًا من ركابها، فهو قطار غني غير محتاج للوقوف في المحطات المتوسطة لتحصيل المال من

الركاب في تلك المحطات، فليس له رغبة في هؤلاء، وقطار آخر يقف على كل محطة في طريقه إلى القاهرة، ويصل في حوالي ست ساعات، فهذا مثل ضعيف الإرادة، ضعيف العزيمة، نعم هو لا يريد إلا وجهة واحدة، لا يريد إلا وجه الله، لكنه متكاسل ضعيف العزم، لا يجتهد ولا يبذل ما عنده لكي يصل إلى غايته، فهو مُتَوانٍ، ومشغولٌ بأن ينال من هذه اللذة الدنيوية شيئًا، ومن التي تليها شيئًا آخر، وهذه العبادة ثقيلة عليه نوعًا فيؤجلها ويسوفها ليفعلها غدًا، إلى متى؟

إلى أن يصل في النهاية بعد إنهاك بخلاف الذي يصل مباشرة، الذي يريح من يكون معه، بل يسعد من يركبه، لذلك إذا ركبت مركب صدق الإرادة وصلت إلى غايتك بأسرع طريق، لأنك قد جعلت لك رغبة أكيدة في الوصول، لا تتكاسل ولا تتوانى.

❁ ❁ ❁

شمول العبادة

وهذه الوظيفة التي خُلقت من أجلها تشمل جميع حياتك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

فليست العبادة داخل المسجد فقط كما يريد أعداء الإسلام أن يبثوا في نفوس أبناء الإسلام من أن العبادة تكون في المسجد فقط، كما تكون عندهم في الكنيسة والمعبد وفقط، والكل سواء، لا يهم من عبده ولمن وجه له هذه العبادة، فكل ذلك عندهم لا بأس به، وأما خارج المسجد، خارج الدين - المحصور في نطاقه الضيق - فالإنسان حر يفعل ما يشتهي، هذه نقرة وهذه نقرة، ولذا نجد العجب ممن حصل له ذلك الانفصام، والانفصال في شخصيته، ربما

تجده محافظًا على الصلاة والحج والعمرة والصيام، وبعض الأذكار، وهو - والعياذ بالله - يعيش حياته الأخرى في حرب على الإسلام وأهله، وربما يعيش حياته الأخرى في أسرته وعمله يسرق الناس، يغشهم، يظلمهم، يفعل المحرمات، هذا الانفصام في الشخصية، سببه الخلل في مفهوم العبادة، والظن أنها في مكان معين ووقت محدد فقط، وأنه إذا أدى الإنسان ذلك انتهى كل ما عليه، أي أنه إذا أتى بالأركان فليس هناك مزيد، أيقبل ذلك أحدُهم في حياته الدنيوية؟ أيرضى أن يسكن في شقة ليس بها الجدران، بل والكماليات، والدهانات الفاخرة،...؟ فلماذا يرضى أن يبقى له من دينه الأركان فقط؟

بالتأكيد بيت بلا أركان لا يقوم، ومعنى ذلك أن الصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، والحج، أسس لهذه

العبادة، ولكن لا يعني ذلك أنها كل العبادة، فالدين أوسع من ذلك، والعبادة أشمل من هذا، تشمل فعل كل ما أحبه الله، وترك كل ما كرهه الله كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة».

بل ونضيف إلى ذلك «التروك الظاهرة والباطنة أيضًا».

فالتروك الظاهرة: هي كف الجوارح عن المحرمات، فأنت تترك ما تترك إلا لله؛ عبادة له، تغض بصرك، أي: تترك إطلاق بصرك إلى الحرام، وتترك مثلًا فعل الفاحشة، وتترك سرقة الناس وغصب أموالهم وغير ذلك، وكل هذا يدخل في مسمى العبادة.

والتروك الباطنة: التي تكون بالقلب ككف القلب عن المحرمات كالحسد، والغل، والضغينة، والرياء، وسوء الظن

بالله، والشك، والإصرار على المعاصي وسوء الظن بـالمؤمنين، ومحبة الكافرين وموالاتهم، وغير ذلك.

والعبادات الباطنة: كالحب والخوف والرجاء، والإنابـة، وحسن الظن بـالله، والتوبـة، والرضـا، والتوكـل، والـصبر، والإخـلاص، والمراقبـة، والمحاسـبة، والتفكـر، والإخبـات، والذل، والزهد، والورع، وتعظيم حرمـات الله، والتواضـع، والافتقـار إلى الله، والغنـى عـن الخلـق، والـشوق إلى لقائـه وغيرها من العبادات التي تؤدى بالقلب.

والعبادات الظـاهرة: منهـا مـا يـؤدى باللـسان: كالـذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن، والاستغفار، والتسمية، والاسـتعاذة، والحلف، والنصيحة للمسلمين، والدعوة إلى الله.

ومنها ما يـؤدى بالبـدن: كالـصلاة، والـصيام، والحـج، والجهاد، والرحلة في طلب العلم، والمشي إلى المساجد، وزيارة

الإخوة في الله، والسعي في حوائج المسلمين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران، والسماحة في البيع والشراء والقضاء، وغير ذلك.

ومنها ما يؤدى بالمال: كالزكاة والصدقة، والنفقة في الحج والعمرة وعلى الزوجة والأولاد والأقارب والنذر بالمال.

نسأل الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يجعلنا من عباده المخلصين



إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين

وأهم ما تتحقق به هذه الوظيفة الاستعانة بالله، فأنت لا تعبد الله إلا بالاستعانة به.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وهذا الذي أمر به النبي ﷺ معاذًا رضي الله عنه قَالَ: «**يَا مُعَاذُ والله إِنِّي لأُحِبُّكَ، لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[١].

فهو - سُبْحَانَهُ - الأول والآخر والظاهر والباطن، فالعبد يعامل سبقه - تَعَالَىٰ - بأوليته قبل كل شيء، وسبقَه بفضلِه وإحسانِه الأسباب كلها، يعامل ذلك بما يقتضيه من إفراده - عَزَّ وَجَلَّ -، وعدم الالتفات إلى غيره، ولا الوثوق بسواه، ولا التوكل على غيره.

---

(١) رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وأحمد، وابن حبان، وصححه الألباني في «الكلم الطيب» (١١٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فمن ذا الذي شَفَع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتى سماك باسم الإسلام، ووَسَمَك بسمةِ الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقْطَعَك في ذلك الغيبِ عَمالاتِ المؤمنين، فَعَصَمَك من العبادة للعبيد، وأعتقك من التزامِ الرِّقِّ لمن له شكْلٌ ونَديد، ثم وجَّهَ وجهةَ قلبِك إليه -سُبْحَانَه - دون ما سواه، فاضرع إلى الذي عصَمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القِدَم، أن يُتِم عليك نعمة هو ابتدأها، وكانت أوليَّتُها منه بلا سببٍ منك، واسْمُ بِهِمَّتِكَ عن ملاحظة الأختيار، ولا تركنن إلى الرسوم والآثار، ولا تَقْنعَ بالخسيس الدُّون، وعليك بالمطالبِ العالية، والمراتبِ السامية، التي لا تنال إلا بطاعة الله، فإن الله -سُبْحَانَه - قضى أن لا يُنالَ ما عنده إلا بطاعته، ومن كان لله كما يريدُ كان الله له فوق ما يريد، فمن أَقْبَلَ إليه تَلَقَّاه مِن

بعيد، ومَن استعان بحوله وقوته ألان له الحديـد، ومـن تـرك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد، ثم اسْمُ بِسِرِّكَ إلى المطلب الأعلى، واقصر حبك وتقربك عـلى مَن سَبَقَ فضله وإحسانه إليك كل سبب منك، بل هـو الـذي جاد عليك بالأسباب، وهيأها لك، وصَرَف عنـك موانعهـا، وأوْصَـلَك بهـا إلى غايتـك المحمـودة، فتوكـلْ عليـه وحـده، وعامِلْه وحده، وآثر رضاه وحده، واجعل حبَّه ومرضاتَه هـو كعبة قلبك التي لا تـزال طائفًـا بهـا مـستلمًا لأركانهـا، واقفًا بِمُلْتَزَمِها، فيا فوزك وسعادتك إن اطلع - سبحانه - على ذلك من قلبك، بما يُفيضُه عليك من ملابس نعمِه وخلَعِ أفـضاله.

«اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَـا مَنَعْـتَ، وَلاَ يَنْفَـعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»[1].

ونسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم، بتصرف يسير.

الخاتمة

والآن أخي الحبيب، بعد أن عرفت وظيفتك في الحياة وهي عبادة الله وحده، لا شريك له، ومعلوم أن كل موظف يسعى جاهدًا أن يرفع درجته في المجتمع ليعيش منعمًا، فتراه يسعى للرقي في السلم الوظيفي، فيدخل في مسابقات وظيفية، أو يسهر الليل والنهار في المذاكرة، أو يتغرب عن أهله في بلاد مختلفة طلبًا للشهادة الدنيوية، وأملًا أن ترتفع درجته وعلاوته، واصلًا حياته في تلك الدائرة.

وكل ذلك من أجل أن يرفع مكانته ووجاهته ونعيمه في مجتمعه، على الرغم من أن هذه الوظيفة، وتلك الدرجة أو الشهادة، وذلك الكرسي الذي يحرص عليه ويتنافس من أجله لن يدوم فيه، وقد يموت قبل أن يصل إليه، فهو ظل زائل وعارية مستردة.



ولكن هكذا طموح كثير من الناس في الدنيا، وهي في الحقيقة كما قال النبي ﷺ: «**لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[1].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥]، فلو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف[2] يبقى، لآثر العاقل اللبيب الخزف الباقي على الذهب الفاني؛ فكيف لو كانت الآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى، بل هي أحقر من ذلك.

وكأني بملك من ملوك الأرض بني قصرًا وشيده فأحسن تشييده وصرف عليه مبالغ طائلة، ثم قال للناس من كان له

---

(١) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٢) الخزف: الحجارة.

على هذا القصر ملاحظة قيمة كانت له جائزة قيمة، فأخذ الناس يدخلون ذلك القصر ويتعجبون من إحكام بنائه، فمر رجل فوجد الزحام أمام القصر فسأل عن الخبر فأخبروه.

قال: عليه ملاحظتان، أدخلوني إلى صاحبه، فلما دخل عليه وسأله عنهما، قال: مالكه سيموت، والقصر سيفنى ليس غير الله يبقى.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥].

فالدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها، أيكم يبني على أموج البحر دارًا، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارًا.

والمسلم الرباني عبدٌ لله في كل أحواله وأوقاته، فقيرًا كان أو غنيًا، مُمَكَّنًا أو مستضعفًا، مظلومًا في ظلمات السجون أو مَلِكًا مُمَكَّنًا على رؤوس الناس، يسعى لرضا ربه ومحبته حتى يحبه الله، فتكون معه الفئةُ التي لا تُغلب ولا تُهزم.

قال - سُبْحَانَه - في الحديث القدسي: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

أخي الحبيب:

فإذا وجدت أهل الدنيا يتنافسون في وظائف الدنيا وشواغلها فنافسْهم في وظيفة العمر التي خُلِقْتَ من أجلها

---

(٢) رواه البخاري.

(العبودية)، بأن تحب الله أكثر، وتخاف منه أكثر، وتتوكل عليه أكثر، وتركع له أكثر، وتسجد له أكثر.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٩].

وقال النبي ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[١].

وفي رواية: «**فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ فِي السُّجُودِ**»[٢].

نسأله - سُبْحَانَه وَتَعَالَىٰ - أن يجعلنا من الساجدين ومن عباده المخلَصين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلَّى الله وسلَّم على النبي الأمين، وآل بيته الطيبين، وصحبه المكرمين، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

تم بحمد الله

(١) رواه مسلم وأبو داود، والنسائي وأحمد.

(٢) رواه أبو عوانة، والبيهقي، وصححه الألباني في الإرواء (٤٥٦).

فهرس